الأقـــدار

للكاتب الأمريكي ده . هنري توريه

أن معرفتنا الحوادث التي تؤثر على حياتنا ومصيرنا في الواقع معرفة طفيفة ضئيلة فهناك من هذه - الحوادث — إذا شئت أن تسميه حوادث — ما يدنو منا ، ثم يتزحزح عنا ، دون أن يكون له أي أثر على أنفسنا ، أو يغشى قربه ، أو يلقي ضوءاً أو ظلا عن وجوده . وهذا ما حدث لدافيد سوان .

نحن لا يهمنا من حياة دافيد سوان سوى تلك التي تربطه بها منذ بلوغه العشرين من العمر عندما كان قادماً من مسقط رأسه في طريقه إلى مدينة بوسطون ليعمل في حانوت عمه . ويكفي أن نعرف أنه ولد في نيوهامشاير من أبوين محترمين ، وأن ثقافته عادية تزيدها دراسة عامين في أكاديمية جايمانتون . وكان يشعر بالجهد وعناء السير ووطأة القيظ بعد أن قطع شوطاً كبيراً من الطريق منذ شروق الشمس حتى ظهر يوم من أيام الصيف الحارة . فعزم على أن يستريح في أقرب مكان تكتنفه الظلال وينتظر قدوم مركبة السفر وكأنما تهيأ له هذا المكان ، فسرعان ما بدت أشجار باسقة حول خلاء يتوسطه نبع من الماء العذب الدافق فطبع قبلة على صفحته من شفتيه الظمآنتين ثم استلقى على الأرض وقد توسد لفافة تحوي ملابسه الداخلية . كانت الشمس تجاهد في فتح ثغرة بين الأفنان حتى تصل إليه ، وأعجب ما في ذلك الغبار المتصاعد من الطريق بعد أن هطل المطر في الليلة الماضية . وارتاح الشاب لتلك الحشائش التي يرقد عليها وكأنه نائم على فراش وثير . وتمتم النبع بهمس بجواره ، وتأرجحت الأفنان تحت السماء الزرقاء . ثم استولى عليه نوم عميق تتخلله أحلام عابرة لا يهمنا أمرها ، فكل اهتمامنا موجه إلى ما يحدث بعيداً من أحـــلامه .

كان الناس غادين رائحين على طول الطريق راكبين أو متعجلين فيمرون عليه وهو راقد تحت سلطان الكرى في خلوته وقد

منفت إلى ريا :

قرأت في الرسالة الغراء في العدد ٨٠٦ ص ١٣٩٧ في مقال الأستاذ أحمد أحمد بدوي قصيدة الصمة بن عبد الله التي مطلعها :

حننت إلى ريا ونفسك ساعدت مزارك من ريا وشعبا كما معاً

منسوبة إلى القشيري ، والمعروف أنها للصمة بن عبد الله بن طفيل بن الحرث بن قرة بن هبيرة بن عامر بن سلمة الخير بن قشير بن كعب ، كما ذكر أبو تمام في ديوان الحماسة (ص ٥٤ الجزء الثاني الطبعة الثانية) ، وهو شاعر غزل مقل من شعراء الدولة الأموية قالها في بنت عم له هويها يقال لها « ريا » ، فخطبها إلى عمه ، فزوجه إياها على خمسين من الإبل ، فسأل أباه ذلك ، فساق عنه تسعاً وأربعين ، فأبى عمه إلا الخمسين كاملة ، فلج أبوه ولج عمه فتركها مغاضباً ورحل إلى الشام فتبعتها نفسه ، وجاش صدره بهذه القصيدة .

عبد الجليل السيد حسن

تصحيح كلمة :

لاحظت أن الأديب المتمكن الأستاذ عدنان أسعد في تتبعه عثرات الأقلام وتطبيسات الصحف ألف أن يجعل من كلمة — مانع — صفة للشيء المستحسن الجميل حتى لقد ذكرها في تعقيباته أكثر من مرة . في الجزء الخامس من المجلد الأول من مجلة « الكتاب » القاهرة وفي العدد ٧٨٢ من « الرسالة » الغيرة ويبدو لي أن التوفيق أخطأه إذ وجدت أبا الفرج الأصفهاني في أغانيه ج ٢ ص ٥٠ ط دار الكتب المصرية يروي شعراً على لسان المجنون يقول فيه :

أشرن بأن حتوا الجمال فقد بدا من السيف يوم لافح الحر مانع

وقد ذكر الشراح أن المانع هو الطويل خلافاً لما ذكره الأستاذ ، وله مني تحية إعجاب .

(الباعية) محمد الشازلي حسن

ألقت عليه الأشجار ظلالها. وكان منهم من لا يلتفت نحوه أو بسرة فلا يدرى وجود دافيد ، ومنهم من يرمقه وهو يبتعد عنه سارحاً فى أفكاره، ومنهم من يضحك عندما يشاهده راقداً يغطى نومه ، ومنهم أولئك الذين امتلأت قلوبهم بالبغضاء ، فيبعثون إليه فيضاً من كلمات الضغينة والحقد .

وأطلت أرملة متوسطة العمر عليه ، ثم حدثت نفسها قائلة : أنه يبدو فاتناً فى نومه. ورآه مدرس وقور فعزم على أن يزج بالشاب المسكين فى موضوع محاضرته التى سيلقيها ذلك المساء ، فيشبه حاله بحال سكير أفرط فى الشرب حتى نام بجوار الطريق . كانت كل هذه الخواطر بما فيها ذم ومدح ، وسرور وغضب ، وإعجاب واحتقار ، لا تهم دافيد فى شىء . فقد كان بمنأى عنها وهو غارق فى نومه .

وأقبلت مركبة يجرها زوج من الجياد القوية سريعاً ما وقف أمام ملجأ دافيد . كانت إحدى عجلاتها قد انزلقت بعيداً عنها ، مما روع التاجر المسافر وزوجه قليلا ، فترجلا عن المركبة ، إلى أن يتم استبدال عجلة بأخرى، وقصد إلى ملجأ دافيد تحت الأشجار التى تظلله . وتململ النبع المتفجر يشكو تطاول الدخيلين ، وتأثر الهدوء الشامل الذى كان يرين على المكان ، فعادا أدراجهما فى خفة وسكون ، خشية أن يوقظا النائم . وهمس السيد الكهل قائلا ما أعمق نومه ! انظرى كيف يتنفس فى هدوء . وددت لو أنام مثل هذا النوم فى مقابل تنازلى عن نصف ثروتى . أنه الصحة والسعادة وصفاء الضمير .

فقالت السيدة — ذلك بجانب الفتوة والشباب . إن الرجل الكهل وإن كان صحيح البدن لا ينام مثله .

وكان التاجر وزوجه كلما أطالا النظر إلى دافيد ، ازداد اهتمامهما به ، وهو نائم فى ذلك المكان بجوار الطريق تحنو عليه تلك الأشجار ، وكأنه يرقد فى مسكن خاص لا ينازعه فيه منازع ، وقد انسدلت فوقه ستائر فاخرة من الظلال ، وأقبلت الشمس وقد وجدت أشعتها فرجة تنفذ منها خلال الأغصان ، أقبلت تقبل وجهه . وشعرت السيدة بحنان الأمومة يطغى على قلبها ، فأحنت قدها تظلل به وجه الشاب ، ثم همست تقول لزوجها .

— يبدو أن العناية الالهية قد وضعته فى طريقنا ، وقادتنا إليه . إنى أرى شبها بينه وبين ولدنا الراحل . ألا توقظه ؟

فتردد التاجر هنيهة ثم قال — لماذا ؟ إننا لا ندرى شيئا عن أخلاقه .

فأجابت السيدة — ألا ترى هذه الملامح الطيبة ؟! ألا تلاحظ هذا النوم البرىء ؟!

كانت همساتها تردد فى المكان ، ومع ذلك لم تسرع دقات قلب دافيد ، ولم تبهر أنفاسه ، ولم تشف ملامحه عن أى اهتمام لما يدور حوله ، ولم يشعر « بالحظ » فوقه وعلى أهبة الاستعداد لأن يغمره بالذهب . لقد فقد ذلك التاجر وحيده ، ولم يعد له وريث سوى قريب بعيد لا يميل إليه ، ولا تعجبه أخلاقه . ولهذا كان دافيد على قاب قوسين أو أدنى من الثروة والغنى .

ورددت السيدة تحاول إقناع زوجها — ألا توقظه ؟

وهنا سمع صوت السائق وراءهما يقول — أن المركبة على أهبة الرحيل .

فحمل الزوجان ، واحمر وجهاهما ، ثم أسرعا يبتعدان عن النائم وهما يعجبان ويتساءلان كيف خطر لهما أن يحاولا إيقاظ هذا الشاب . وتهالك التاجر على مقعد المركبة ثم سرحت به أفكاره بعيداً عن دافيد ، ودفعته إلى الاهتمام بمشروع ملجأ للعاطلين .

ولم تكد المركبة تبتعد حتى أقبلت فتاة حسناء فى خطى رشيقة ، تشف عن قلب صغير يرقص فى صدرها . ولعل ابتهاجها وهى تهادى حركاتها هى التى دعت (وهل هناك ضرر من قول ؟!) إلى تهدل جوربها الحرير (أن كان حريرياً !) فانتحت جانبا بجوار المكان الذى يرقد فيه الشاب ، وانحنت تحاول تثبيت جوربها . وسرعان ما علا وجهها حمرة خجل كأحمرار الوردة عندما أبصرت ذلك النائم المستلقى بجوار النبع ، وهمت بالهرب فى هدوء عندما لاحظت خطراً يهدد الشاب . كانت تحوم فوق رأسه نحلة ضخمة ، وتدور حول المكان فى طنين عال ، فتارة تطير بين الأغصان ، وتارة تندفع مخترقة أشعة الشمس ، ثم تختفى فى الظلال ، وأخيراً حطت على جفن الشاب . وكانت الفتاة تعرف ما تسببه لدغة النحلة من ضرر فهاجمتها بمنديلها ونحتها عنه . ثم وقفت تلهث ، وقد بدت حمرة الخجل على وجنتيها ، وجعلت تختلس النظر إلى ذلك الشاب الغريب ، وتحدثت نفسها ولم تزل حمرة الخجل تعلو وجنتيها « كم هو جميل الطلعة ! » .

كيف لم يساوره أثناء نومه حلم سعيد ، حلم يستطيع فيه أن يلاحظ هذه الفتاة بين أبطال حلمه ؟ ولماذا لم تشرق ابتسامة ترحيب على وجهه ؟ لقد قدمت إليه تلك العذراء التى وافقت روحها روحه ، والتى كان يتوق إلى رؤيتها ، ويصبو إلى لقائها . إنها هى الوحيدة التى يتمنى أن يحبها الحب الفريد المكامل ، وهو

الوحيد الذى يستطيع أن يتربع فى أعماق قلبها . وها هى ذى الآن قد انعكست صورتها على صفحة ماء النبع بجواره ، تلك التى ستختفى عن أنظاره إلى الأبد إذا لم يستيقظ ويرها .

وغمغمت الفتاة قائلة ما أعمق نومه !

ثم عادت أدراجها وقد ثقلت خطواتها . كان والدها تاجراً ريفياً ناجحاً ، وكان يبحث فى ذلك الوقت عن شاب يساعده فى أعماله ويشاركه فى تجارته . وهكذا اقترب « الحب » من داميد كما اقترب منه « بلاخط » دون أن يدرى عنه شيئاً .

وابتعدت الفتاة عن المكان عندما أقبل رجلان واقتحما الخلوة . يرتديان قاتمين وملابس رثة قذرة . كانا من أولئك المتشردين الذين يتعيشون على ما يرسله لهم الشيطان . وهاهما قد أقبلا لاقتسام ما ربحاه من القاصرة . وإذ بهما يشاهدان الشاب وهو نائم فهمس أحدهما إلى الآخر قائلا — ألا ترى تلك اللفافة التى تحت رأسه ؟ .

فأومأ الآخر بإيجاب ، وغمز بعينه ، ثم نظر شزراً . فقال الأول — أراهن على قدح من الخمران لم يكن هذا الشخص يملك محفظة عامرة بالأوراق المالية أو يخفى نقوده الفضية فى مخبأ داخل هذه اللفافة ، ذلك إذا لم نجدها فى جيوب سراويله.

فقال الآخر — وإذا ما استيقظ ؟ .

فأشار زميله إلى مقبض خنجره المثبت داخل سترته ، فتمتم الشق الثانى قائلا — هذا يكفى ! .

واقترب من النائم ، وسدد أحدهما الخنجر صوب قلبه ، فجعل الآخر يبحث فى ثنايا اللفافة التى كان يتوسدها . وكانت ملامحهما تنطق بالشر والجريمة والخسوف وهما منحنيان فوق ضحيتهما . حتى ليكاد أن يخيل إلى الشاب — إذا ما استيقظ ورآهما — أنهما من الشياطين . ولو كانا قد ألقيا نظرة إلى صورتيهما المنعكستين على صفحة ماء النبع ، لما عرفا نفسيهما وهما فى هاتين الصورتين البشعتين . ولكن الشاب كان نائماً فى هدوء لم يهدده من قبل .

وهمس أحدهما قائلا — يجب أن أحرك هذه اللفافة .

وتمتم الآخر — إذا ما تحرك سأقضى عليه .

وأقبل فجأة كلب يشم الأرض تحت الأشجار ثم ألقى نظرة فاحصة على الشقيين ، وأخيراً عاد أدراجه .

فقال أحدهما — لن نستطيع عمل شىء بعد ذلك . إن صاحب الكلب بالقرب منه .

فقال الآخر إذاً دعنا نشرب ثم نرحل .

وأعاد الرجل خنجره إلى طيات ثيابه ، ثم أخرج قارورة من الشراب ، وجعل يناول منها هو وزميله وأخيراً نزحا عن المكان وهما يضحكان . وبعد ساعات كانا قد نسيا ذلك الشاب غير مدركين أن الملك الذى يدون ما يجرى من حوادث قد سطر فى صفحتيها إثماً ضد روحيهما ، إثماً دائماً بدوام الخلود . أما داميد فكان لا يزال غارقاً فى سبات هادىء ، لم يشعر بشبح الموت وهو يجثم فوقه ، ولا بضياء الحياة الجديدة التى منحت له عندما انسحب ذلك الشبح . ونام ملء جفونه نوماً أبعد عنه الجهد والتعب . وأخيراً أخذ يتململ وتحركت شفتاه ثم تمتم وكأنه يتحدث مع أطياف أحلامه النهارية . وسرعان ما استيقظ عندما سمع صليل عجلات مركبة السفر وهى تنهب الطريق مقبلة نحوه . فنظر إليها ثم صاح — أيها السائق ، أتأخذ معك مسافراً ؟ .

فأجاب السائق — أصعد — فهناك مكان فى أعلى المركبة .

وصعد الشاب مغتبطاً وسارت المركبة صوب بوسطون . ولم يلق داميد نظرة على ذلك النبع بما جلبه له من أحلام متقلبة. ولم يعرف أن شبح « الثروة » قد ألقى ظله الذهبى على مياهه ، ولم يدرك أن ملك « الحب » قد تنهد فى هدوء واختلط صوته بصوت أمواجه ، ولم يشعر أن شبح الموت كان على وشك أن يصبغ تلك المياه بدمه . حدث كل هذا فى ذلك الظرف الوجيز من الزمان الذى كان فيه نائماً ؛ فنحن فى نومنا لا نشعر ولا نسمع وقع خطوات الحوادث وهى تمر علينا مراً . أليس فى استطاعة قوة الهية مهيمنة أن تجعلنا قادرين على التنبؤ — ولو بقدر بسيط — بتلك الحوادث الخفية الفجائية التى تلقى بنفسها فى طريقنا ؟

محمد فتحى عبد الوهاب

إعلان

أتمت دار الكتب المصرية طبع الجزء الثانى من كتاب أشعار الهذليين وهو معروض للبيع يومياً وثمن النسخة الواحدة منه ٤٠٠ مليما للافراد و٣٥٠ مليما لباعة الكتب .